

جوانب إنسانية

عند الرصافي

١

تتردد على الأفواه وفي كتابات النقاد كلمة « الإنسانية » غير محدودة الدلالة ، ولا محصورة الفكرة ، فقد تدل على كل ما يقترن في أذهاننا من السمو بالحياة البشرية ، وأن تجتاز كل العقبات التي تقف في طريقها ، بحيث تعم في العالم وحدة إنسانية لا تكيّفها حواجز من وطن أو جنس ، ولا تحدها عصبية من دين وغير دين .

وبذلك تصبح الإنسانية نزعة عالمية ، يريد أصحابها أن تعم العالم كله روابط واحدة : فلا أبيض ولا أسود ، ولا شرقي ولا غربي ، ولا مسلم ولا مسيحي ، فالعالم يهدف إلى الاتحاد . كان أسرة ، ثم كان قبيلة ، ثم أصبح أمة ، ولا بُدَّ أن تتلاصق وحداته ، فتذوب كل عنصرية ، وتذوب كل عصبية ، ويصبح الناس إخوة في نطاق واسع من الإنسانية ، لا تحده غير السماء والأرض .

وينساق أصحاب هذه النزعة في الدعوة إلى الخير ، وتراهم يكثرون من بكاء الإنسانية لأن قوافلها ضلت طريقها ، وهي تدفع ثمن هذا الضلال بما تنجره من أبنائها على مذبح الحروب ، وما تسفكه من دمائهم . ولا ريب في أن هذه مثالية ، وأنها تحلّق في خيال بعيد لعالم لا يمكن أن يتحقق في الأرض ، وفي الناس من طينها ومن شرورها ومن نزعات الأنانية ما يغري كل أمة أن تكون لها بقاء الأرض من دون أخواتها وجيرانها .

وما أشبه هذه النزعة بنزعة التصوف ، فكلاهما حلم وخيال ، يحلم

الصوفي بربه ، ويحلم الإنسانى بعالم لا يمكن أن يراه ، ومع ذلك فهو يكثر من التفكير فيه والتعلق به ، حتى يظنه حقيقة من الممكن أن تقع تحت بصره ، فما يزال يهيب بالناس والأمم أن يقفوا ليتأملوا معه ، فيبصروا العالم الحق ، ويفروا إليه من عالمهم ، عالم الآلة والشر .

وهو حلم صوفي جميل ترتفع أثناءه كلمة النزعة الإنسانية ، وتهم في أجواء سحرية غامضة . وقد تسقط من هذه الأجواء وتقرب من أرضنا ، بل قل تنزل فيها لتدل دلالات أخرى يفهمها الإنسان الواقعى الذى لا يعيش فى عالم الرؤى ؛ وإنما يعيش فى دنيا الواقع المحسوس . ومن هذه الدلالات ما يرتبط أشد الارتباط بالدلالة المثالية السابقة مع ارتباطه بالحقيقة الملموسة ، وتقصد فكرة الرحمة بالضعيف ومواساة العاجز الفقير ، فهذه الفكرة إنما يريد أصحابها أن يرتقوا بحياتنا البشرية ، فيعم بين الناس فيها دفع الضرر عن إخوانهم ، وأن يتعاطفوا معهم تعاطف الأخ مع أخيه ، فلا يكون هناك بائس ولا بؤس ، ولا حاقد ولا حقد ، وإنما يكون التآزر والتعاون بين الناس حتى كأنهم جسد واحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

ومن الممكن أن ندخل فى هذه الدلالة الإنسانية محبة الإنسان لوطنه . إذ تقوم هذه المحبة فى بعض جوانبها على الاعتراز بالمواطن ؛ وأن تكون له الحقوق الإنسانية المشروعة من حرية وغير حرية . وأيهما أشد وقعا على النفس أن ترى شخصا متألما ، قد سجن كالطائر فى قفص من الفقر والحرمان ، أو ترى شعبا قد شُدد بأسره فى أغلال الذل والهوان ، شدته أمة متوحشة لا ترى فى مرآة الأرض سوى نفسها وطموحها وآمالها وغايات أهلها ؟ ألا إن هذه المرآة الكاذبة ينبغى أن تحطم ، وأن يسترد الشعب الأسير حقوقه التى أعطاها الله إياها .

وقد تدل كلمة الإنسانية دلالة واقعية مطلقة ، إذ خيراد بها أن

يصور صاحبها الإنسان بكل ما فيه من نقائص ومعايب . فهو إنسانى النزعة ، أى أن مساوىء الإنسانية ومحاسنها تتضح فيه وفى أدبه ، بمعنى أنه لا يخفيها ، بل يجليها فى أتم معانيها .

وهناك دلالة أخرى تقابل هذه الدلالة وتناقضها ، إذ تدل الكلمة على الإيمان بالإنسان وعقله وإيمانا لا حده ، فالشخص الذى يؤمن بالملكات الإنسانية ، ولا يعتقد فيما وراء المنظور الملموس منها شخص إنسانى النزعة ، لا يعتقد بقوى خارقة وراء عالمه الإنسانى .

ونرى من ذلك أن كلمة « الإنسانية » واسعة الدلالة ، وأن من الممكن أن تفهم بمعان كثيرة ، غير أن المعتاد بين النقاد ، وخاصة إذا تحدثوا فى الشعر والنثر ، أن يقفوا منها عند الدالتين الأولى والثانية ، وقاما فكروا فى دلالات أخرى .

٢

ولم يكن شئ من هاتين الدالتين الموصوفتين يقع فى شعرنا القديم والوسيط إلا فى الندرة ، سوى ما عرف به أبو العلاء فى لزومياته ، إذ نجد عنده نزعة إنسانية كاملة ، أمان عاشوا حوله ومن قبله وبعده ، فقلما تجاوزوا أنفسهم ، إذ غلبت عليهم العواطف الفردية الذاتية ، ولم ينظروا فى أمر من أمور الجماعة ، ولا فى أزمة من أزماتها .

حتى إذا كنا فى العصر الحديث واعتدنا التفكير فى شئوننا السياسية والاجتماعية أخذنا وأخذ شعراؤنا معنا يفكرون فى جوانب النقص الشائعة فى حياتنا . وبذلك انفك الشعر من القيود الذاتية ، وأخذ يسبح فى أجواء جديدة ، بعضها سياسى وبعضها اجتماعى ، وهى أجواء لونت ألوانا حديثة ، فلم تعد الألوان القديمة التى تنبع من مزاج الشاعر هى كل ما يلون شعره ، بل

امتزجت بها ألوان أخرى ترجع في جملتها إلى أن شعراءنا وجدوا شعوبهم متخلفة ، بل مستعمرة ، قد أنكر عليها الأوربيون حقوقها السياسية .

وقد رأوا المستعمر يحول بين الشعب وبين ما ينبغي أن يتمتع به من حرية ، فجأروا بالشكوى ، ونادوا في مشارق العالم الإسلامي ومغاربه ، إننا نريد أن نعيش عيشة شريفة ، ، عيشة حرة كريمة ، ونادى معهم الرصافي :

إِذَا لَمْ يَعْشْ حُرًّا بِمُوطِنِهِ الْفَتَى فَسَمَّ الْفَتَى مَيْتًا وَمُوطِنَهُ قَبْرًا
أَحْرَيْتَنِي إِنْ نِيَّ اتَّخَذْتُكَ قَبْلَةً أَوْجِهْ وَجْهِي كُلَّ يَوْمٍ لَهَا عَشْرًا
وَأَمْسِكْ مِنْهَا الرُّكْنَ مُسْتَلِمًا لَهُ وَفِي رُكْنِهَا اسْتَبَدَلْتُ بِالْحَجَرِ الْحَجْرًا

فهو يرى أن الحياة ليست شيئاً بدون الحرية ، وهي حرية اعتنقها كل شعراءنا في العصر الحديث وتعلقوا بها ، إذ وجدوا فيها حقهم الإنساني الأول ، بل حق الجماعة التي عاشوا معها ، وأخلصوا لها وتغنوا آلامها .

ونظروا فرأوا في هذه الجماعة ضرباً من العنصرية الدينية ، فألحوا على هدمه ونقض حائطه الذي يفصل بين أبناء الأمة الواحدة ، وخاصة بين المسلمين والمسيحيين لما بينهم من الصلات الوطنية ، وما ينبغي أن يسود بينهم من الإخاء والمحبة ، وفي ذلك يقول الرصافي :

أَمَا أَنْ أَنْ تَنْسَى مِنَ الْقَوْمِ أَضْغَانُ فَيُبْنِي عَلَى أَسِّ الْمَوَاخَاةِ بَنِيَانُ
أَمَا أَنْ أَنْ مُرَّحِي التَّخَاذُلِ جَانِبَا فَتَسْكِبُ عِزًّا بِالتَّنَاصُرِ أَوْطَانُ
عَلَامُ التَّعَادِي لاختلاف ديانة وَإِنْ التَّعَادَى فِي الدِّيَانَةِ عَدْوَانُ
وَمَا ضَرَّ لَوْ كَانَ التَّعَاوُنُ دِينًا فَتَعْمُرُ بِلْدَانٍ وَتَأْمَنُ قُطَّانُ
إِذَا جَمَعْتَنَا وَحْدَةً وَطَنِيَّةً فَمَاذَا عَلَيْنَا أَنْ تَعْدُدَّ أَدْيَانُ
إِذَا الْقَوْمُ عَمَّتْهُمْ أُمُورُ ثَلَاثَةٍ لِسَانُ وَأَوْطَانُ وَبِاللَّهِ إِيْمَانُ
فَأَيَّ اعْتِقَادٍ مَانَعُ مِنْ أَخَوَةٍ بِهَا قَالَ إِنْجِيلُ كَمَا قَالَ قُرْآنُ
كِتَابَانِ لَمْ يُنْزِلْهُمَا اللَّهُ رَبَّنَا عَلَى رُسُلِهِ إِلَّا لِيَسْعِدَ إِنْسَانُ

فمن قام باسم الدين يدعو مفرقا قدعواه في أصل الديانة بهتان
أنشقى بأمر الدين وهو سعادة؟ إذن فاتباع الدين يا قوم مخسران
ونجد لهذه الدعوة نظائر عند شعراء مصر والشام ، إذ أخذ الشعراء ينادون
بالتحرر من عبء الاختلاقات الدينية وما يندره المفسدون من بذور
الشقاق بين عناصر الأمة باسم الدين ، والدين في جوهره براء مما يندرون
ويفسدون ، إذ يقوم عند المسلمين والمسيحيين جميعا على التسامح والأخوة .
وعلى هذا النحو بعثت حياتنا السياسية في العصر الحديث مشاعر جديدة
في نفوس شعرائنا لم يكن أسلافهم يألفونها ، ولم تكن يناييعها تتفجر في قلوبهم
لسبب بسيط ، وهو أن الشعراء لم يكونوا يفكرون فيما حولهم ، ولم تكن
مشاكل المجتمع ولا مشاكل البشرية ميدانا لأقلامهم . فلما خرجنا من
عصورنا الوسطى ووجدنا أنفسنا يرازء مشاكل إنسانية مختلفة ، أخذ شعراؤنا
يوجهون إليها نشاطهم الفكري ، وأخذت تعمل في صميم قلوبهم .

فإذا شاعرنا لا يعيش لنفسه ، وإنما يعيش لمواطنيه ، وقد يمتد بصره إلى أعلى
فيعيش للإنسانية كلها ، وهو في ذلك جميعه ينفصل من عالم الوحدة والفردية ،
ويلحق بمحيط أوسع من الناس من حوله ومن هم بعيدون عنه . وحرى أن
يفكر أول ما يفكر فيمن يعيش معهم وفي آلامهم ونقائصهم وأن يهب لهم
شعره ، وأن يجعله نفذا للتعبير عن حقوقهم الإنسانية من جهة ، وكأجما لما
يراه فيهم من معائب من جهة أخرى . وكأنه يريد أن يجمع شتات أمته من
جديد ، وأن يكون لهذا الشتات كل الصفات التي ترفعه في تاريخ الإنسانية التي
يسعى العالم كله إلى تمجيدها والرقى بها . فهو يستخلص لشعبه كل الميزات
التي تحيله شعبا ممتازا في خلقه وروحه وعقله ، ولعله من أجل ذلك كان
الرصاصي يشيد دائما بالعلم ويدعو إلى إعطاء المرأة حقوقها ، فهو يريد أن يزيل
كل الحواجز التي تعوق شعبه عن النهوض والوقوف على قدميه بين شعوب

العالم . وتترأى فى تضاعيف ذلك رغبة قوية فى الإصلاح الاجتماعى .
من ذلك أن نراه يقف فى وجه الطلاق والاتساع به، وقصيده «المطلقة» من
خير القصائد التى تصور عيوب هذه المشكلة ، وخاصة حين تطلق المرأة بدون
ذنب جنته يدها . يقول واصفا لحالها ، ناعيا هذه السوء الاجتماعية :

بدت كالشمس يحضنها الغروبُ فتاةٌ راعٍ نضرتها الشحوبُ
منزهة عن الفحشاء خودُ من الحفريات آنسة عروبُ (١)
نوارُ (٢) تستجد بها المعالي وتبلى دون عفتها العيوب
صفا ماء الشباب بوجنتيها فحمت حول رونقه القلوبُ
ولكن الشوائب أدركته فعاد وصفوه كدر مشوبُ
حليلة طيب الأعراق زالت به عنها وعنه بها الكروب
رعى وردعت فلم تر قسط منه ولم ير قط منها ما يريب
فغاضب زوجها الخلاء يوما بأمر للخلاف به نشوب
فأقسم بالطلاق لهم يمينا وتلك ألية (٣) خطأ وحوبُ
وطلقها على جهل ثلاثا كذلك يحمل الرجل الغضوب
وأقنى بالطلاق طلاق بت (٤) ذرو قنيا تعصهم عصب
فبانت عنه لم تأت الدنيا ولم يعلق بها الذام المحيب
فظلت وهى بالكية تنادى بصوت منه ترتجف القلوب
لماذا يا لبيب صرمت حبل وهل أذنت عندك يا لبيب
أبن ذنبى إلى فدتك نفسى فإنى عنه بعدئذ أتوب
لئن فارقتنى وصددت عنى فقلبي لا يفارقه الوجيب

(١) العروب . المرأة المتحبة إلى زوجها .

(٢) النوار : المرأة النفور من الربة .

(٣) الألية : القسم . الحوب : الذنب والإثم .

(٤) الطلاق البت : الطلاق البائن بدون رجعة .

فأطرق رأسه خجلاً وأغضى وقال ودمعُ عينيه سكوب
لبيةً أقصرى عني فإني كفاني من لظى الندم اللهب
وما والله هجرُك باختيارى ولكن هكذا جرت الخطوب
فليس يزول حبك من فؤادى وليس العيش دونك لي يطيب
والرصافي يطيل من المحاورة بين الزوجين ليرينا آفة هذا الطلاق الزائف ،
وكبر هذا الخطأ الذى يقع فيه بعض أصحاب الفتوى من رجال الدين ، إذ
يطلقون باليمين اللغو يجرى على لسان الزوج دون أن يقصده قصداً ، فتفصم
معرفة زواج وثقته محبة وعفة ، وما يزال حتى يقول :

ألا قل في الطلاق لموقعه بما فى الشرع ليس له وجوب
غلوتم فى دياتكم غلوًّا يضيق ببعضه الشرع الرحيب
أراد الله تيسيرا وأتم من التعسير عندكم ضروب
وقد حلت بأمّتكم كرب لكم فيهن لا لهم الذنوب
وهى جبل الزواج ورق حتى يكاد إذا نفخت له يذوب

وهو فى كل ذلك تساقط نفسه حسرات لهذه المطلقة ، وإنه ليدعو أن
تقف هذه العادة الآثمة بل إنه يصرخ فى وجوه الفقهاء ورجال الدين أن
يعودوا إلى صوابهم ، فيبطلوها إبطالا ويلغوها إلخاء . وتتردد مثل هذه
الصيحة الإنسانية فى كثير من جوانب الديوان .

٣

وكان الرصافي حساسا شديدا الحساسية رقيق الشعور ؛ فكاد لا يترك
منظرا مؤثرا لمسكود أو منكوب إلا رسمه بريشته رسما حزيا يبعث الشجا
والأسى فى النفس ، وكان يعرف كيف يصِفُ ما انطوى عليه قلب المسكروب

من أفكار وآلام . وهذه قصيدته « الأرملة المرضعة » من خير الأدلة على ما نزع : يقول :

لقيتها ليتني ما كنت ألقاها تمشي وقد أثقل الإملاق تمشاها
أثوابها رثة والرجل حافية والدمع تذرفه في الخد عيناها
بكت من الفقر فاحمرت مدامعها واصفر كالورس من جوع محياها
مات الذي كان يحميها ويسعددها فالدهر من بعده بالفقر أشقاها
الموت أجفها والفقر أوجعها والهمل أنحلها والغم أضناها
فمنظر الحزن مشهود بمنظرها والبؤس مرآة مقرون بمرآها
كرُّ الجديدين قد أبلى عباها فانشق أسفلها وانشق أعلاها
ومزق الدهر ويل الدهر، مزرعها حتى بدا من شقوق الثوب جنبها
تمشي بأطرافها والبرد يلسعها كأنه عقرب شالت زباناها
حتى غدا جسمها بالبرد مرتجفا كالغصن في الريح واصطكت ثناياها
تمشي وتحمل باليسرى وليدتها حملا على الصدر مدعوما بيمنها
قد قطعتها بأهدام ممزقة في العين منشرها سمج ومطواها
ها أنس لا أنس أنى كنت أسمعها تشكو إلى ربها أوصاب دنياها
تقول يارب لا تترك بلاكبن هذى الرضيعة وارحمي وإياها
يارب ما حيلتي فيها وقد ذبلت كزهرة الروض فقئت الغيث أظماها
ما بالها وهي طول الليل باكية والأم ساهرة تبكي لمبكاها
يكاد ينقد قلبي حين أنظرها تبكي وتفتح لي من جوعها فاها
ويُلْسها طفلة باتت مروعة وبت من حولها في الليل أرهاها
تبكي لتشكو من داء ألم بها ولست أفهم منها كنه شكواها
كانت مصيبتها بالفقر واحدة وموت والدها باليتم نناها
والقصيدة لوحة رائعة لأرملة فقيرة ، تمزقت عليها ثيابها ، ولم يعد لها

ما يحميها من البرد بل من العُرى ، ولم يعد في ثديها ما ترضع به وليدها .
يا لبؤس الحياة ! ويا لمرارتها في فمها بل في فم الرصافي الذي ذهب يجلو علينا
هذه الصورة الكئيبة ! وقد تعاون الدهر والفقر في إخراجها على شاكلة
تنقذ لها القلوب وتحس ألما ولوعة ، بل تحس لذعا وكيًا . ويمضي
فيذكر أنه أعانها ببعض دراهم يملكها ، فأنت ، وأجهشت بالبكاء ، ونفشت
زفرات من جوانحها ، ثم قبلت ما أعطاهما شاكرة مثنية على خلقه ، متمنية
أن يعم في الناس حسٌ مثل حسه وعطف مثل عطفه . إذن لم تكن هناك أرملة
تشكو شكواها وتسود الدنيا في عينيها وتظلم على نحو ما سودت أمامها وأظلمت .
ويظهر أن نفس الرصافي كانت تنطوى على كثير من المروءة والحنان
والشفقة ، فكان دائم التفكير في هذه الطبقة الشقية المحرومة التي نبذها المجتمع ،
فلم يصر لها عناية ولم يولها اهتمامه ، حتى النقود القليلة ضنَّ بها عليها وشحت
نفسه . وتحول الرصافي إلى ما يشبه بوقا ، فهو ينفخ في الناس لعلمهم
يبصرون ما تحت أعينهم من آلام مشجية وأوجاع مضية . واستعان في ذلك
بمواقف مختلفة ، تارة يختار أرملة ترضع طفلا ولا تجد كساء ولا قوتا يدر لها
لبنا ، إنما تجد الشقاء والعذاب والمسغبة ، وتارة أخرى نراه يختار أختا لها
فقدت زوجها وكبر يتيمها ، وطلع عليهما العيد ، وأطل صباحه وكأنه وجه
نحس يرسل عليهما شواظا من البؤس والحزن . وينظران فيبصران الناس
من حولهما فرحين مسرورين يدقون طبول العيد ، أما هما فكسيران
تاعسان يبكيان :

وَحَقَّ لَسْلَى أَنْ تَنُوحَ فَإِنَّا مِنْ الْعَيْشِ سَمًّا نَاقِعًا تَتَجَرَّعُ
وينادى في قومه أن أغشوها ، وكفى ما ذقنا في بلادنا من الظلم والهوان ،
وما يزال يستثير من حوله حتى يكتبوا لمثل هذا اليتيم وأمه .
ولم يقف عند أرامل المسلمين ویتاماهم فحسب ، فقد ذهب يشارك يتامى

الأرمن وأراملهم يؤسهم حين أنزل عليهم الترك جام غضبهم في فتنة « أطنة » ،
وَصَوَّرَ ذلك فأبدع في تصويره ، إذ يقول في قصيدته « أم اليتيم » :

رمت مسمعى ليلاً بأنّة مؤلمٍ فألقت فؤادي بين أنياب ضيغم
وباتت توالى في الظلام أنينها وبت لها مُرّى بنهشة أرقم
إذا بشت لي أنّة عن توجعٍ بعثت إليها أنّة عن ترحم
تقطّع في الليل الأنين كأنها تقطّع أحشائي بسيف مثلم
وما خفقان النجم إلا لأجلها وما الشهب إلا أدمعُ النجم ترمي
لقد تركتني موجه القلب ساهرا أخا مدمع جارٍ ورأس مهوّم
ثم يصف بيتها ، وكيف أعولت فيه النحوس ، وألقت به الأيام أثقالاً يؤسها ،
ويقول إنه دخل في الصباح البيت ، ليستطلع نبأ هذا الأنين ويعرف مبعثه
ومأناه ، فرأى جسماً ضعيفاً نهكته همومه ، وحوله صغير لم يجاوز الخمس
من عمره ، يبكي من ألم الجوع ، وهي لا تجوده إلا بالدموع ، فلما أحس بالشاعر
توجه إلى أمه مخاطباً :

سلي ذا الفتى يا أمّ أين مضى أبى وهل هو يأتينا مساءً بمطعم
فقال له والعين تجري غروبها وأنفاسها يقذفن شعلةً مضرم
أبوك ترامت فيه سفرة راحل إلى الموت لا يرّجى له يومٌ مقدّم
مشى أرمينياً في المعاهد فارتمت به في مهاوى الموت ضربة مسلم
على حين ثارت للنوائب ثورة أتت عن حزازات إلى الدين تنتمي
فقامت بها بين الديار مذابح تخوض منها الأرمنيون بالدم
ولولاك لاخترت الحمام تخلصا بنفسى من أتعاب عيش مذمم
فأنت الذي أحررت أملك مرهما عن الموت أن يودى بأملك مريم
أمريم ! مهلاً بعض ما تذكرينه فإنك ترمين الفؤاد بأسنهم
أمريم ! إن الله لا شك ناقم من القوم في قتل النفوس المحرم

فليس بدين كلُّ ما يفعلونه ولكنه جهلٌ وسوءٌ تفهم
لئن ملئوا الأرض الفضاء جرأماً فهم أجرموا والدين ليس بمُجرم
ولكنهم في جُحٍ ليلٍ من العمى تمشُّوا بمطموس العلائم مُبهم
وظلَّتْ لها أبكى بعينٍ قريحةٍ جرت من أماقيع عصارَةٍ عندم
بكيتُ وما أدري أبكى تضجراً من القوم أم أبكى لشقوةٍ مريم
وهذه القصيدة تتيح لنا أن نستشف من خلالها اتساع العنصر الإنساني في
شعر الرصافي ، فهو يتنازل عن حواجز الدين واللغة ، ليقف في صف
الآرمن ، وكأنه يؤمن بوجوب تحرير الروح وإطلاق سراحها من قيود
التعصب الديني . وهو في ذلك يقدم الجنس الإنساني على الفواصل المحلية
التي تفصل بين جزئياته ، وتفرق بين وحداته ، أو قل إنه كان يتمنى أن تتحقق
وحدة هذا الجنس على أسس من الأخوة والتعاطف ، فلا يكون هناك
أرمني وتركي ولا مسيحي ومسلم ، بل يكون هناك الوثام والتجانس التام
بين الأجناس والأمم والشعوب .

وما كان شيء يؤذى نفسه مثل الفقر والعوز ، وأن يشبع الغنى ويلبس
الإستبرق والحري ، ويجوع الفقير ويعرَى ، وإن لبس لم يلبس إلا ثياباً أخلاقاً
ممزقة ، وما شبع الغنى وثيابه إلا من عرق الفقير ومن جهده وكده
وكفاحه ، يقول :

أرى كلَّ ذي فقر لذي كلِّ ذي غنى أجيراً له مستخدماً في عقاره
ولم يُعطه إلا اليسير وإنما على كدِّه قامت صروحُ يساره
وكأنه يرى الأغنياء جميعاً تعاونوا على نهب حقوق الفقراء واغتصاب
ما كسبته أيديهم ، وإنهم ليدنون قصورهم على كواهلهم ، ويسيرون مسراتهم
وملذاتهم على أحزانهم وآلامهم ، وما يؤس البائس إلا جنابة الغنى ، وإلا ثمرة
طمعه وجشعه ، وما يحوزه لنفسه دون أخيه الفقير .

وكثيرا ما اقترن الفقر في ذهن الرصافي بالسقام والمرض ، وهو يرى الأول مؤذنا بالثاني مؤهلا له ، معدا للنزول في أوصابه وأوجاعه . وقصيدته « الفقر والسقام » من أروع الأمثلة لهذا القران السكد المشؤوم الطالع ؛ وفيها حكي قصة رجل معسر يسمى بشيرا كان يعمل أجيرا ، ويكسب لنفسه قوتا يسيرا ، شاكرًا لربه راجيا حسن المآب ، وكان يعول أختا له يطعمهما من كده فاعتراه داء المفاصل حتى عاقه عن العمل والاكتساب ، وأنفق كل ما ملكت يده ، بل كل ما ربحته أخته فاطمة من غز لها قبل أن ينزل به الداء . وهنا نراه يناجيهما أن تمرضه وتحرضه على العمل ! ولم تلبث أخته أن سعت إلى جارتها فشكت حالتها وحال أخيها ، فأعانتها ببعض ما سداً به رفقهما ، وألح المرض والفقر على بشير ، ومازالا به حتى فاضت روحه في ليلة عاصفة من ليالي الشتاء . فبكت أخته وأعووات وولوات ، ولم تجد ما تكفنه به ، فظل ملقى إلى أوان الزوال ، إذ جاد شخص عليه بعد سؤال بريال ونصف ريال ، فحمل إلى قبره على نعش أمشاله بدون ستر ولا زينة . ثم يروى الرصافي أنه مضى على موت بشير عامنا ، وكان يمشي « بشارع الميدان ، فأبصر نعشا ، نُقش البؤس عليه نقشا ، فسار وراءه مع السائرين ، فلما دفنوا البائس الفقير وقف يسأل من الذي دفن اليوم ؟ فتصدى له فتى :

قال : إن الدفينَ أختُ بشيرٍ أخت ذاك المسكين ذاك الفقيرِ
بقيت بعده بعيش عسيرٍ وبطرفٍ باكٍ وقلب كسيرِ
وقضت مثله بداء القُلابِ

قلت أقصر عن الكلام فحسبي منك هذا فقد تزلزل قلبي
ثم ناجيتُ والضراعة ثوبى ربَّ رحماك رب رحماك ربى
رب رشدنا إلى طريق الصوابِ

رب إن العباد أضعف أن لا يجدوا منك رب عفو وفضلا
فاعف عن أخذهم وإن كان عدلا أنت يارب أنت بالعفو أولى
منك بالأخذ والجزا والعقاب

قد وردنا والأرض للعيش حوض واحد كنا لنا فيه خوض
فإذا به مشوب ومحض عظمت حكمة الإله فبعض
في نعيم وبعضنا في عذاب

أيها الأغنياء كم قد ظلمتم نعم الله حيث ما إن رحمتم
سهر البائسون جوعاً ونم بهناء من بعد ما قد طمعت
من طعام منوع وشراب
كم بذلتم أموالكم في الملاهي وركبتم بها متون السفاه
وبخلتم منها بحق الإله أيها الموسرون بعض انتباه
أفقدرون أنكم في تباب

وهذه النهاية للقصة أو للقصة توضح مدى ما شغل به الرصافي نفسه
من التفكير في الإنسانية وسبل الخير والشر التي يسلكها بنو الإنسان ،
فقنى وفقير ، وسميد وشقى . وإنه ليفزع إلى ربه يطلب منه الرحمة بالبشر ،
حتى في الموت والجزاء ، وإنه ليتساءل فيم هذا الاختلاف بين الناس ؟
ولماذا كان بعضهم في نعيم وبعضهم في عذاب ؟ . وإن ذلك ليشقى الرصافي ،
بل لكأنه هو الشقى المحروم الذي ينعا ، فالحياة مظلمة من حوله ، وروحه في
قلق دائم تريد للناس جميعا أن يكونوا سعداء ، وأن يزايل الشقاء البشر
كلهم من مسلمين وغير مسلمين ، وهو لذلك يكثر من الأنين ، ومن دعوة
الأغنياء إلى أن يمسخوا على بؤس البائسين . ولعل في ذلك كله ما يدل على أنه
كان يحلم للناس وخاصة من مواطنيه بحالم سعيد ، فقد عاش يتغنى آلام
التعساء المظلومين والأشقياء المحرومين .